نجد منذ القـ
حتى ظهور الشيخ محـ

الأوضاع السياسية :

يمكن أن يقال ان المقومات التي كان حضر المجتمع النجدي آنذاك يرون ضرورة توافرها في الزعامة السياسية لم تكن تختلف بصفة عامة عما هو معروف عن مكونات الزعامة العربية التقليدية التي من أهمها اصالة النسب والشجاعة والكرم • وزعامة البلدان النجدية في تلك الفترة كانت تنتمي الى قبائل عربية مختلفة • وليس غريبا أن تحتل قبيلة تميم مركزا قويا بين تلك الزعامات نظرا لكثرتها العددية من ناحية ولنزعتها الاستيطانية المعهودة منذ زمن طويل • ومن أمثلة الامراء المنتمين الى هذه القبيلة أمراء العيينة ، اقوى مدينة نجدية في ذلك العهد ، وأمراء ثرمداء وروضة سدير وبريدة •

وعلى أية حال فان الأسر التي كانت تسيطر على مقاليد الامور في بلدان نجد وصلت الى الامارة بطرق مختلفة • من هذه الطرق أن يكون جد الأسرة هو الذي أنشأ البلدة أو أحياها بعد أن هجرها آخرون • وكثيرا ما تم ذلك بشراء المكان من مالكه الاول كما حدث بالنسبة للعيينة (١) • ومن هذه الطرق أن يتم الاستيلاء على البلدة بالقوة وينتزع المسئولون من خارجها الامارة ممن كانوا يتولون الزعامة

★ تكملة لما سبق نشره بالعدد الأول من السنة الثانية والعدد الثالث من السنة الثالثة •

ـــرن العاشر الهجرى
ـــمد بن عبد الوهاب

بقلم : الدكتور عبدالله الصالح العثيمين

فيها · مثال ذلك انتزاع آل حنيحن الدواسر البير من سبيع سنة ١٠١٥ هـ (٢) ، وأخذ الهزازنة نعام والحريق من سبيع أيضا سنة ١٠٤٠ هـ (٣) ·

وفي كلتا الحالتين السابقتين تكون الامارة وراثية تقليدية في الأسرة أو تذهب الى شخصية معينة من بين أفرادها بترجيح منهم ، باستثناء الصراعات التي قد تقوم داخل الأسرة أحيانا ·

والصراع حول السلطة أمر مألوف في تاريخ جميع الأسر في مختلف بلاد العالم ، وفي سائر الفترات التاريخية · ولكن نسبة ذلك الصراع تتأثر باختلاف الظروف · وعلى هذا الاساس فان ما يلاحظه القارىء في المصادر المتوفرة عن الصراع داخل الأسر الحاكمة في نجد آنذاك حول الزعامة ليس أمرا غريبا ، خاصة أن المنطقة كانت تمر بمثل الاوضاع الاجتماعية التي أشير اليها في عدد سابق من هذه المجلة ·

وقد امتد ذلك الصراع الى اقرب الأقرباء ، ففي سنة ١١٠١ هـ ـ مثلا ـ قتل ابراهيم بن وطبان أخاه مرخان حول زعامة الدرعية (٤) · وفي سنة ١١١١ هـ اعتقل أولاد عثمان بن نحيط أمير الحصون أباهم ونفوه منها بتشجيع من أمير جلاجل (٥) · والى ذلك يشير حميدان الشويعر بقوله :

مثل راعي جلاجل مـع ابـن نحيـط
أدركـــه مـن زمـان وهـو يسحـره

أظهـره للقضا مـــن كنيـن الـذرى
ثـــم جـود عنـــه ساكـف المحجـره

ثـم قـال احملوا يـــا عيالـه عليـه
واحـد بلمـــه وآخـــر عقـره (٦)

وفي سنة ١١٣٨ هـ قتـل عثمـان بن ابراهيم ابنـه ابراهيم الذي كان أميرا في القصب (٧) ٠

وقد لعبت بعض القوى خارج البلدة النجدية دورا في الصراع الداخلي وتغيير القيادة أحيانا ،كما حدث بالنسبة لابن نحيط المشار اليه ، وكما حدث سنة ١٠٥٢ هـ حين أخرج ابن معمر رميزان بن غشام من أم حمار وما أعقب ذلك من قتل الشريف زيد بن محسن لأمير الروضة ماضي بن محمد وجعل رميزان أميرا لها (٨) ٠

وما دامت هذه هي الظروف وأن الصراع حـول السلطة كـان يمتد الى هذا المدى فلم يكن مستغربا ان يوجد صراع حول الحكم بين أسر مختلفة داخل البلدة ، كما حدث لآل مزروع حين أخذ منهم دواس رئاسة منفوحة سنة ١٠٩٥ هـ (٩) ٠ ولم يكن مستغربا أيضا ألا تجدي صلة القرابة القبلية التي قد تكون موجودة بين أمراء بلدة وأمراء بلدة أخرى في خلق جو من التآلف أو الوحدة في المنطقة ٠ بل ان وجود مثل تلك الصلة لم يمنع قيام الحروب بين أولئك الامراء ٠ وأصبح التفكك السياسي نتيجة طبيعية حتى غدت كل بلدة مستقلة بذاتها ، وفي أغلب الأحيان ذات علاقة غير ودية مع جارتها ٠ وكان على كل أمير أن يكون في حالة استعداد عسكري دائمة اما لمهاجمة خصمه والحصول على ما أمكن من غنائم واما للدفاع عـن بلدته ضد أي هجوم من الآخرين ٠ ومن هنا كانت القوة محببة الى النفوس ، وكان المجتمع يرى فيها حلا لكثير من مشاكلـه السياسية ، فرميزان بـن غشام يخاطب جبر بن سيار بقوله :

يـا جبر حـد السيف مفتاح الفـرج
تـراه لصعـوب الرجال يـذلل (١٠)

وحميدان الشويعر يقول :

لا شك بالهندي قضا كل عاجز
وشرابة من دم الخصيم كموع

ويقول :

والسيف القاطع والعزمه
لارقاب الضد يهديها

الارنب ترقد ما توذى
ولا شفت الناس تخليها

والسبع الموذي ما يرقد
ولا يوطا بارض هدفيها (١١)

والامارات النجدية تعاقبتها فترات ضعف وقوة · لكن أقوى امارة ظهرت في المنطقة كانت امارة العيينة ـ كما ذكر سابقا ـ خاصة في زمن رئيسها عبدالله بن معمر الذي تولى الامارة بين سنتي ١٠٩٦ و ١١٣٨ هـ · وقال عنه ابن بشر انه لم يذكر مثله « في زمانه ولا قبل زمنه في نجد في الرئاسة وقوة الملك والعدد والعدة والعقارات والأثاث » (١٢) ·

ومع ذلك فانه من الواضح أن تلك العظمة لم تصل الى درجة تمكن العيينة من الاخلال بميزان القوة السياسي والعسكري لصالحها ·

أما علاقة الحاكم بالمحكوم فانها كانت تختلف من أمير الى آخر · والصفة العامة التي يصف بها ابن بشر أمراء نجد في تلك الفترة هي الظلم اذ يقول : « ورؤساء البلدان وظلمتهم لا يعرفون الا ظلم الرعايا والجور ·· » (١٣) · وقد يقال ان هذا المؤرخ المتحمس لدعوة الشيخ محمد بالغ في هذه العبارة التي وردت في مقدمة كتابه ليوضح الفرق بين ما كانت عليه البلاد قبل ظهور الدعوة وما آلت اليه حالها بعد ظهورها وانتصارها · لكن ابن بشر لم يكن وحده في اعطاء صورة قاتمة لأمراء تلك الفترة اذ يقول الشاعر المعاصر لهم جبر بن سيار :

شيوخ الى فكرت فيها لكنها
ثعالب طرفا تفسد الملك جايره

تركبوا ظلـــم الرعايـــا وطبعهـــم
يدلك عليه ان مات تشبح بصايره (١٤)

والاوضاع العامة في المنطقة آنذاك كانت مساعدة على حدوث بعض أنواع من الظلم لأن القوة والاغتيال كانا من طرق الوصول الى السلطة · والخوف من الثأر قد يملي اتخاذ اجراءات تعسفية أحيانا · كذلك كا نللحالة الاقتصادية أثرها في هذا الامر ، فقلة الموارد لدى بعض الامراء مع متطلبات الدفاع والضيافة قد تحتم اتخاذ اجراءات اقتصادية غير عادلة في نظر الكثيرين · وكان بعض الامراء لهذا يأخذ مبالغ مالية سنوية ــ غير الزكاة ــ من أتباعه (١٥) ·

وكان على المحكومين أن يصبروا علـى بعض هـذه الاساليب الجائرة لطبيعة حياتهم الاقتصادية التي تعتمد في الغالب على ثروة ثابتة · وكان الفرد يخشى أن هو حاول الهروب من الجور فقدان بعض هذه الممتلكات غير القابلة للنقل ·

ومع كل ما تقدم فانه كان هناك أمراء عادلون يسيرون بأتباعهم سيرة حسنة ، ويتعاملون معهم تعاملا طيبا ، ويحلون أمور الافراد بطريقة شرعية · ولا شك انه كان لبعض القضاة أثر ملموس في هذا الموقف ·

ومؤهلات الزعامة السياسية في بادية نجد آنذاك هي المؤهلات التي كان توافرها ضروريا للوصول الى مركز القيادة لدى القبائل العربية في العصور المختلفة · واذا كان من المسلم به أن أصالة النسب كانت متوافرة لدى أسر القبيلة كلها فان التفاوت بين الافراد كان نتيجة لأمور أخرى كالكرم والشجاعة والحلم وسداد الرأي · ومتى ازداد توافر هذه الصفات في أحد رجال القبيلة ازدادت فرص تقلده مركز قيادتها ·

ومع أن زعيم القبيلة كان يختار حسب مؤهلاته القيادية الذاتية من قبل رؤساء العشائر والبطون ــ ومن وراء هؤلاء وأولئك بقية الافراد ــ فان قرب الفرد نسبيا من الزعيم القديم كان من بين مرجحات زعامة من سيخلفه · ولهذا يلاحظ ان الزعامة لا تخرج في غالب الاحيان عن أسرة الزعيم القديم نفسها ، حتـى أصبحت لدى كثير من القبائل وراثية أسرية تقليدية ·

وعلى أية حال فانه يمكن القول بأن الطريق الى الزعامة لدى بادية نجد في تلك الفترة أقرب الى الديمقراطية منهـا لدى خاضرتها · وهي ديمقراطية ناجحة

تمتاز بالود والاعجاب من الافراد لزعامتهم والتضحية والوفاء من تلك الزعامة لهم • وكان متوقعا أن يحدث ذلك الاختلاف في العلاقة بين رجال القبائل ورؤسائهم عن العلاقة بين أفراد الحضر وأمرائهم لاختلاف الظروف السياسية والاقتصادية عند كل منهما • فبعض طرق الزعامة لدى الحضر ـ كما تقدم ـ كانت القوة أو الاغتيال • والثروة لدى الافراد كانت في غالبها ثابتة • ولهذا اصطبغت علاقة الامارة بالافراد بالجور أحيانا وضرورة الصبر عليه • أما طريق الزعامة لدى البدو فكانت الاختيار الحر • ولذا كان الزعيم دائما يفكر في دعم رؤساء العشائر وكبار القوم له ، كما ان هؤلاء كانوا يشعرون بالثقة بأنفسهم ودورهم غير البسيط في موضوع اختيار الزعامة • وثروة البدوي قابلة للنقل • فلو فرض أن أحد أفراد القبيلة أحس بضغط عليه فانه كان بامكانه أن يسوق ابله وأغنامه وأن يرحل الى حيث شاء دون أن يناله ضرر اقتصادي كبير مثل ذلك الضرر الذي ينال عادة من ثروته ثابتة • وكان من السهل على مثل هذا المرتحل أن يجد ملاذا عند قبيلة عربية أخرى • بل كان من السهل ـ حسب نظام الدخيل المعروف ـ أن يجد من كان مجرما حماية سياسية لدى من يحتمي به • وعلى هذا الأساس اتصفت علاقة رئيس القبيلة بأفرادها بالمرونة وبما أشير اليه من كونها مثالا حيا لانقياد المعجبين بالقيادة الوفية •

وواضح أنه كان هناك تنظيم سياسي هرمي لدى القبائل •

هناك الافراد يتزعمهم مشائخ العشائر والبطون ، ثم هؤلاء المشائخ بزعامة رئيس القبيلة • ويكون أولئك المشائخ بزعامة رئيس القبيلة • ويكون أولئك المشائخ بقيادة الزعيم مجلس شورى القبيلة الذي تبحث فيه الشؤون المهمة مثل قضايا الحرب أو السلم مع القبائل الاخرى والانتقال من مكان الى آخر للرعي • كما تبحث فيه ايضا مسائل الخلاف داخل القبيلة ذاتها •

ولم يكن رئيس القبيلة فيما يظهر يأخذ مبالغ مالية سنوية من أفراد قبيلته ، وانما كان ينفق على واجباته من ماله الخاص سواء منه ما ورثه أو حصل عليه نتيجة الغزوات أو فرضه على القوافل المارة بمنطقة نفوذه •

أما علاقة كل قبيلة في نجد بالقبيلة الاخرى فكانت في غالبها سيئة ، خاصة اذا كانت القبيلتان متجاورتين • وكانت القوة هي الفيصل فيما كان يحدث بينها من نزاع ، سيرا على المثل المشهور « نجد لمن طالت قناته » •

والقبائل التي كانت تتنازع حول موارد المياه ومواطن الكلأ لاحتلال مركز الصدارة في نجد آنذاك كثيرة · في بداية القرن العاشر الهجري كان هناك نفوذ لفروع من قبيلة لام المشهورة ، كما كان نفوذ لبني خالد اذ يقول جعيثن اليزيدي في مدح مقرن آل أجود المقتول سنة ٩٢٧ هـ :

ونجد رعى ربعي زاهي فلاتها
على الرغم من سادات لام وخالد (١٦)

ولو لم يكن لهاتين القبيلتين نفوذ في نجد آنذاك لما كان هناك وجه لمدحه مقرنا بتحديه لهما · لكن المتتبع لتاريخ عبدالله بن بسام خاصة وللتواريخ النجدية الاخرى عامة يلاحظ أن قبيلة عنزة كانت قد أثبتت قوتها منذ ذلك الزمن · وقد ظلت طيلة الفترة التي يتناولها هذا البحث تحتل مركز الصدارة في المنطقة · يوضح ذلك كثرة هجماتها على القبائل الاخرى وانتصارها عليها في أغلب الاحيان · ومن أشهر القبائل التي أشارت المصادر الى قوتها في تلك الفترة بكثرة حروبها الدواسر والظفير والفضول · وتلي هذه القبائل ذكرا في المصادر آل مغيرة وسبيع والسهول وقحطان ومطير ·

ومعروف أن قبيلة مطير هي التي أزاحت نفوذ قبيلة عنزة عن أهم مناطق نجد الرعوية فيما بعد وان قبيلة قحطان هي التي حلت محل مطير في بسط النفوذ على تلك المناطق كما يوضح ذلك قول مويضي البرازية :

نجد حميناها من أولاد وايل
واليوم عدونا سكن وادي الراك (١٧)

وأول ظهور لمطير في هذه المصادر كان سنة ١٠٢٢ هـ (١٨) · أما أول حرب دخلتها ضد عنزة فكان حين اشتركت مع الظفير في وثال سنة ١٠٦١ هـ (١٩) · ثم أخذت بمفردها غزوا لعنزة سنة ١٠٧٨ هـ (٢٠) · وبعد ذلك اختفى ذكر هذه القبيلة في المصادر المتحدثة عن الصراع في هذه الفترة التي غلبت عنزة بعد ظهور الشيخ محمد بزمن ·

وكما قيل عن قوة بعض المدن النجدية بأنها لم تصل الى درجة تخل بميزان الوضع السياسي والعسكري لصالحها يمكن أن يقال عن قوة ما كان قويا من القبائل المشار اليها · وهكذا استمر الصراع بين البدو كما كان بين الحضر وان كان بصورة أكثر تعددا لانعدام السلطة المركزية في المنطقة ·

المصادر والهوامش

(١) عثمان بن بشر ، « عنوان المجد في تاريخ نجد » طبعة وزارة المعارف السعودية ، ١٣٩١ هـ ، ج٢ ، ص ١٨٩ .

(٢) ابراهيم بن عيسى ، « تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ... » ، دار اليمامة ، ١٣٨٦ هـ ، ص ٥٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥١ .

(٤) ابن بشر ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٢٠ .

(٥) المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٢٤ .

(٦) خالد الفرج ، « ديوان النبط » ، القاهرة ، ج١ ، ص ٣٠ ـ ٣١ .

(٧) محمد الفاخري « تاريخ الفاخري » ، مخطوط ، ورقة ٢٠ ب ، وابن بشر ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٣٦ .

(٨) الفاخري ، المصدر السابق ، ورقة ٨ ب ، واحمد المنقور ، « تاريخ الشيخ احمد بن محمد المنقور » ، تحقيق ونشر الدكتور عبد العزيز الخويطر ، الرياض ١٣٩٠ هـ ، ص ٤٥ و ٤٧ ، وابن عيسى ، المصدر السابق ص ٥ ـ ٥٦ . بينما يذكر ابن بشر (ج٢ ص ٢٠٨) اسم الشخص الذي قتله الشريف المشار اليه محمد بن ماضي .

(٩) المنقور ، المصدر السابق ، ص ٦٠ ، وابن بشر ، المصر السابق ، ج٢ ص ١١٥ .

(١٠) عبدالله الحاتم ، « خيار ما يلتقط من الشعر النبط » ، دمشق ١٣٨٧ هـ ج١ ص ٨٠ .

(١١) المصدر السابق ، ج١ ، ص ١٠٩ و ١٢١ .

(١٢) ابن بشر ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٣٦ .

(١٣) المصدر السابق ، ج١ ، ص ٢٠ .

(١٤) الحاتم ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ١٠٤ .

(١٥) ابن بشر ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ٢٥ .

(١٦) مجلة العرب ، العدد السابع ، سنة ١٣٨٧ هـ ، ص ٦٠٧ .

(١٧) محمد بن بليهد ، « صحيح الاخبار عما في بلاد العرب من الآثار » ، ١٣٩٢ هـ ، ج٢ ،

(١٨) عبدالله البسام «تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق» مخطوط ، ورقة ٣٦ب .

(١٩) المصدر السابق ، ورقة ٤٤ ب .

(٢٠) المصدر السابق ، ورقة ٤٧ أ .

يتبع • الدكتور عبدالله الصالح العثيمين